

العوامل الطارئة على اللفظة دراسة لقضايا اللفظ والتصحيح والتوليد للغة في ضوء علم اللفظة الحديث الدكتور محمد عيسى : كلية دارالعلوم جامعة القاهرة

فقال : اوليس بظريف ابن اخي يتكلم بالفارسية ،
فلن معاوية ان الكلام بالفارسية لحن « ومن ذلك
البيت المشهور للفزاري

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

ومن معانيها ايضا « التورية » باستخدام معنى
قريب وارادة معنى بعيد ، وعلى ذلك الف ابن دريد
كتابه « الملاحن » قاصدا به استخدام الكلمات وارادة
معان اخرى لا تخطر لأول وهلة على الذهن عند سماع
الكلمة ، وفي مجال المعنى ايضا اطلقت على الخطأ في
المعاني ، وذلك باستعمال الكلمة او التركيب كله على
غير وجهه الذي قرره له العلماء ، وقد الف المفضل
ابن سلمه كتابه « الفاخر فيما تلحن فيه العامة » من
هذا النوع من الخطأ في المعاني ، وجاء في مقدمته
قوله : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة
في امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لا يدرون

لكتابة هذا البحث حول معنى اللحن في الكلام
العربي وتطور استعماله ومقاومته ينبغي - كما هو
واضح في عنوانها - تناول الامور الآتية :

1 - معرفة المقصود باللحن وبيان مظاهره مع
تقديم نماذج لها .

2 - بيان تطور استعماله في الكلام العربي
باختصار .

3 - حركة المقاومة العلمية التي تمثلت في
جهود العلماء لتثقية اللحن .

لقد بحث كثير من الدارسين في كلمة « اللحن »
وتعدد معانيها ، وتطور هذه المعاني ، ويذكر في هذا
الصدد ان من معانيها « الفطنة والذكاء » استنادا الى
قول الرسول (لعل احدكم ان يكون الحن بحجته من
بعض) او התظرف في الحديث بخلطه بالكلام الاجنبي
او الكلام المتعمد فيه الخطأ كما روى ابن دريد انه
« قيل لمعاوية : ان عبد الله بن زياد يلحن في كلامه ،

معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فيبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء فى تفسيره .

فهذه المعاني وغيرها تدرج تحت كلمة « لحن » وربما استعملت فى تصور متفاوتة خاضعة فى ذلك لتطور الدلالة كما هو شأن الكلمات فى كل اللغات أو استعملت بمعان متعددة فى عصر واحد بعد أن تجمعت حول الكلمة ، والذي يبين أحد هذه المعاني ظروف الدلالة للنص الذى وردت فيه .

ولا علينا من ذلك كله ، فإن اللحن الذى تقصده هنا هو « خروج الكلام الفصيح من مجرى الصحة فى بنية الكلام أو تركيبه أو إعرابه بفعل الاستعمال الذى يشيع أولا بين العامة من الناس ، ويتسرب بعد ذلك إلى لغة الخاصة » واللحن بهذه الصفات أمر طاريء على اللغة الفصحى ، إذ أن المفترض فى نطق العرب لها أولا هو الصحة والسلامة اعتمادا على الفطرة والسليقة ، فهذا هو الأصل ، فما حاد عن هذا الأصل الفطري المتوارث فهو خطأ ، ويوصف نطقه حينئذ بأنه « لحن » وغالبا ما يضاف « اللحن » إلى « العوام » أو « العامة » تنبيها على الأصل الذى جاء منه الخطأ فى الاستعمال .

— قال ابن دريد : فأما اللحن فى العربية ، لانك إذا قلت (ضرب عبد الله زيد) لم يدر أيهما الضارب ولا المضروب ، فكأنك قد عدلته من وجهه ، فإذا أمرت من معناه فهم (1) منك .

— سمع أبو عمرو بن العلاء أن أبا حنيفة يبطل القود إلا ما كان قتلا بحديد ، فقال له أبو عمرو : أرايت أن ضربه بكذا ، أرايت أن ضربه بكذا ، قال لو ضربه بأبو قبيس لم يكن عليه قود ، فقال أبو عمرو : هذا كلام شنع ، قال : وما الشنع ؟ قال : ولا تعرف الشنع أيضا !! (2)

— روى الزجاجي : كان سيبويه مستمليا لحماذ بن سلمة — وكان حماد فصيحاً — فاستملاه يوما قول رسول الله (ص) : ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت أخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه (ليس أبو الدرداء) فصاح به حماد : لعنت

يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت وإنما هو استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم والله لأطلبن علما لا تحننني معه ، فمضى ، ولزم مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (3) .

— قال ابن الجوزي : وأعلم أن غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمنون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون المدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون فى الكلمة ، وتارة ينقصون منها ، وتارة يضعونها فى غير موضعها ، إلى غير ذلك من الأقسام (4) .

ويستنبط من النماذج السابقة الدلالة على السمات التى يوصف الكلام من أجلها « باللحن والخطأ » فابن دريد يرى الإخلال بالأعراب فى مثل (ضرب عبد الله زيد) لحن فى العربية ، وهذا حق ويفسره بالمدول عن الوجه فيه من نصب (زيد) فى العبارة السابقة ، وهذا حق أيضا لكنه يتوسع فى فهم المدول عن الوجه فى الكلام بما يشمل الدلالة أيضا « لم يدر أيهما الضارب ولا المضروب فإذا أمرته فهم منك » وهذه وجهة لفهم اللحن فى المعنى ، ويعادفها المرء كثيرا فى الكتب التى تناولته بالدراسة ، وإن لم تصل إلى الفهم الشائع منه من الخطأ فى الأعراب .

وأبو عمرو بن العلاء يصف نطق أبي حنيفة (ضربه بأبو قبيس) بأنه « كلام شنع » مستخدما صيغة المبالغة فى وصف الخطأ الأعرابي فى الكلام الذى هو « اللحن » وهو ما ذكره صراحة حماد ابن سلمة لسيبويه حين أخطأ فى مثل ما أخطأ فيه أبو حنيفة من قوله (ليس أبو الدرداء) ، إذ صاح به حماد (لعنت يا سيبويه) فمن ذلك يتضح أن اللحن يطلق على الخطأ فى الأعراب إذا حدث فى اللغة الفصحى ، فاستعمل فيها تأثرا بما شاع بين العوام وفى الكلام الدارج ، كما أنه يشمل أيضا ما عدده ابن الجوزي من ضم المكسور وكسر المضموم الخ... وهذا فى معظمه يتعلق ببنية الكلمات ، وقد سماه « غلط العامة » أيضا .

(1) الملاحسن ص 6 .

(2) مجالس العلماء ص 110 .

(3) السابق ص 154 .

(4) تقويم اللسان ورقة 2/ .

3 - ومن ذلك (الحشمة) يضعها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي ، وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب ، وحكى عن بعض فصحاء العرب انه قال : ان ذلك لما يحشم بني فلان ، اي يغضبهم (3) .

4 - ويقولون (بكرت اليك) بمعنى هذوت خاصة ، وقال ابو بكر (ابن دريد) البكور التعجل في جميع اوقات الليل والنهار ، يقال : انا ابكر اليك العشية ، وانشد ابو زيد لضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهن في الندي
بيل عليك ملامتي وعقابي

يقال : بعد وهن ، يعني حيناً من الليل (4)

5 - قولهم للثوب (وشاح) قال محمد (الزبيدي) والوشاح نظمان من لؤلؤ يغالف بينهما ، ويعطف احدهما على الآخر ، وتوشح به المرأة على كشحها (5) .

6 - ويقولون (ذو نفع وضر) فيضمون ، قال محمد (الزبيدي) والصواب (ضر) بالفتح ، واما (للضر) فهو السقم ، قال الله عز وجل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو » (6) .

7 - ومن ذلك (الاستحمام) يكون عندهم بالماء الحار والبارد ، وليس كذلك ، انما الاستحمام بالماء الحار خاصة (7) .

8 - قول المتكلمين (هذه المحسوسات) خطأ ، والصواب (المحسات) لانه يقال : احسست الشيء بمعنى ادركته ، فاما المحسوس فهو المقتول ، ممن حسه اذا قتله (8) .

9 - وتقول (استخفيت من فلان) والعامية تقول (اختفيت منه) وانما الاختفاء الاستخراج ومنه قيل للنباش (مخفف) (9) .

10 - وتقول (اصبح القوم) اذا صاحوا وجلبوا ، والعامية تقول (ضجوا) وانما يقال (ضججوا) اذا جزموا (10) .

ومما ذكره ابن الجوزي قوله « وتارة يضمون الكلمات في غير مواضعها » وانهم من ذلك ما يشمل تأليف الكلام العربي ووصف الكلمات في التراكيب اللغوية ، وما يشمل معاني الكلمات في استخدامهما على غير ما قرره لها علماء اللغة ، وهذا الاخير جانب اطلق العلماء عليه ايضا انه « لحن وخطا » وان لم يكن من الكثرة والشهرة ما للاخلال بالامراب او بنية الكلمات .

فقد اندرج تحت ما اطلق عليه « اللحن » امور ثلاث ، اقلها شهرة واهتماما الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ او التركيب في غير ما هو له من المعنى ، واعظمها شهرة وكثرة واهتماما من علمائنا الخطأ في بنية الالفاظ او الامراب ، وسأقدم هنا امثلة قليلة لهذه المظاهر الثلاثة ، الهدف منها تقديم النماذج لا الاستقصاء ، فان مؤلفات اللحن وحدها - فيما استقرائه - بلغت اكثر من اربعين مؤلفا ، تحوي مادة لغوية ضخمة لهذه المظاهر الثلاثة ، وسياتي عرض ذلك فيما بعد .

اولا : من نماذج الخطأ في المعاني :

1 - مما تضعه العامة في غير موضعه قولهم (خرجنا نتنزه) اذا خرجوا الى البساتين وانما (التنزه) التباعد من المياه والارياض ، ومنه قيل : فلان يتنزه من الاقدار ، اي يتباعد منها ومنه قول الهذلي :

اقب طريد بتنزه الفلاة لا يرد الماء الا اثيابا (1)

2 - ومن ذلك (الطرب) يذهب الناس الى انه في الفرج دون الجرع ، وليس كذلك انما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور او لشدة الجرع ، قال الشاعر وهو النابغة الجعدي :

واراني طربا فسي الرهم

طرب الواله او كالختيل (2)

(1) اصلاح المنطق ص 287 .

(2-3) أدب الكاتب ص 18 - 19 .

(4-5-6) انظر لحن العوام ص 137 - 206 - 244 .

(7) لحن العوام ص 256 .

(8) ذيل الفصيح ص 102 .

(9-10) رسالة في الغلط العوام ورقة 101 .

يخلط فيه العامة ، والعرب تقول (دخل في خمار الناس) أي فيما يواريه ويستتره منهم حتى لا يبين (1)

2 - ويقولون (مقداف السفينة) قال محمد (الزبيدي) والصواب (المجداف) ومنه جذف الطائر بجناحيه يجذف جدوفا ، اذا كان مقصوفا ، فرايته كأنه يرد جناحيه الى خلفه ويدارك الضرب (2) .

وواضح ان الخطأ في هذين المثالين سببه التطور الصوتي ، لقرب المخرج بين كل من الخاء والفين في (خمار وغمار) وكذلك بين كل من الجيم والقاف في (مجداف ومقداف) وربما نطقت الجيم اولا (ج) ثم تطورت الى القاف .

3 - قال الجاحظ : كان هند عمر بن عبد العزيز رجلا ، فجعلنا يلحنان ، فقال الحاجب (قوما فقد اوديتما امير المؤمنين) قال عمر : انت آذى لي منهما (3) .

4 - قال ابو عمرو : يقال : انزلت له زلة ولا يقال (زلت) وقد اغلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال (مغلق) وقد اقلته فهو مقفل ولا يقال (مقفول) (4) .

5 - ويقولون (هبت الارباح) مقابلة على قولهم (رباح) وهو خطأ بين ، والصواب ان يقال (هبت الارباح) كما قال ذو الرمة :

اذا هبت الارباح من نحو جانب
به اهل مي هاج قلبي هبوبها

والعلة في ذلك ان اصل (ربح) (روح) لاشتقاقها من (الروح) وانما ابدلت الواو ياء في (ربح ورياح) للكسرة التي قبلها ، فاذا جمعت على (ارباح) فقد سكن ما قبل الواو ، وزالت العلة (5) .

6 - ويقولون للمطهرة (ميضة) وبعضهم يقول (ميضاء) والصواب (ميضاء) بالهمزة ، وانجمع (مواضيء) (6) .

ويكفي هذه الامثلة العشرة لهذا النوع من الخطأ في المعنى ، او ما وصف بأنه « لحن العوام » والملاحظ على هذه الامثلة - وشبهها كثير - ان الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال في فترة خاصة ، فاللحن هذا لا استعمال وتوقف ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة التي قد تتغير من جيل لجيل ، فالكلمات ليست احجارا جامدة ، ولكنها وسيلة اجتماعية يطرا عليها التفسير في معانيها ، والتطور في دلالاتها بحسب العرف القوي السدي يستخدمها ، ومن المفيد ان نلاحظ ايضا ان معاني هذه الكلمات العشر التي حكم عليها بالخطأ ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر - وانه لا يخطر ببال احد استعمالها بالعرف الذي رآى العلماء انه هو العرف الصحيح ، فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا ننتزه) التباعد عن المياه والارياض ، ومن (الطرب) الحزن والسرور معا ، ومن (الحشمة) معنى الغضب لا الاستحياء ، ومن (البكور) التمجل عامة ، ومن (الوشاح) نظمان من اولاد لا الشوب ؟ ومن الذي يستخدم (الضر) بالفتح في مقابل النفع ، ويترك (الضر) بالضم ويفهم من (الاستحمام) انه للماء الحار خاصة ، ومن (لاخفاء) الاستخراج لا التوارى عن العيون !! فمن الواضح ان تفكير علماء اللغة على هذا النحو تفكير النظم التعميد والتحديد ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ، فبقيت دراستهم في واد والاستعمال في واد آخر ، ولست مغاليا ان قلت : ان هذه الجهود كلها افادت من حيث الدراسة في ذاتها ، لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ، ولذلك لم تفد كثيرا في تعديل ما اطلق عليه (اللحن) في عصرهم او بعد عصرهم .

ثانيا : من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

1 - قولهم (دخل في غمار الناس) هذا مما

(1) الفاخر فيما تلحن فيه العامة ص 246 .

(2) لحن العوام ص 69 .

(3) البيان والتبيين ج 3 ص 24 .

(4) اصلاح المنطق ص 227 .

(5-6) لحن العوام ص 169 - 174 .

7 - ويقولون (يوم مهول) ، والصواب (يوم هائل) و (امر هائل) يقال : هالني الشيء يهولني هولا ، فهو هائل (1) .

8 - يقولون (استهتر الرجل فهو مستهتر) (بالكسر) والصواب (استهتر فهو مستهتر) (بالفتح) وهو الذي يخلط في اقواله وافعاله ، حتى كأنه بلا عقل (2) .

9 - وتقول : هذه مروحة ومخدة ومقنعة ومنحفة وملة ومذبة ومغرفة ومقطرة ومطرقة ومدة ومقرعة ومنطقية ومبررد ومطررد ومبضع ومنديل والمساح - موضع بطريق مكة - والمرنج - النجم - كله بكسر الميم والعامة تفتحها (3) .

10 - ويقولون في جمع بيضاء وصفراء وسوداء ، يضاوات وصفراوات وسوداوات ، وهو لحن فاحش ، لان العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث افعل بالالف والتاء ، بل جمعتها على (فعل) نحو بيض وصفر وسود ، كما جاء في القرآن (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) وفي قول امرئ القيس :

وتحسب سامي لا تزال تسرى طلا

من الوحش او بيضا بميثاء محلال (4)

فالنماذج العشر السابقة - ومثلها كثير - تتعلق ببنية الكلمة العربية ، وتدخل تحت مباحث علم الصرف ، وترتب على ذلك ان الحكم عليها « باللحن والخطا » جاء في ضوء القواعد الصرفية لبعضها يتعلق باخلال بنطق الحروف الكلمة بوضع حرف مكان آخر في (حمار وخمار) و (مقداف ومجداف) او باجراء الاعلال وتركه على غير مقتضى قوانين الاعلال والابدال كما في (ازلت وزلت) او صياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في شكل الحروف وكميتها مثل (مفلق ومفلوق - مقفل ومقفل مهول وهائل - مروحة ومروحة .. الخ) . او في الهمز والتسهيل كما في (ميضاء وميضاة) او بناء الفعل للممؤوم والمجهول حسبما ورد من العرب وقرره كتب الصرف كما في (استهتر واستهتر واستضحك

واستضحك) او في صيغة الجمع للمفرد كما في (يضاوات وبيض) . فكل هذه المباحث قرر لها علماء النحو والتصريف مبادئ محددة ، وفي ضوء هذه المبادئ غالبا نظروا الى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ، فكل ما وجدوه مخالفا لها ، حكموا عليه « باللحن » ونسبوه الى العوام .

ومن المفيد ان يعرف ان هذا النوع من الخطا قد حظي بعناية العلماء منابة فائقة في « كتب لحن العامة » مما لم ينل مثله المظهران الاخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني او التركيب والاهراب ، ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بان هذا المظهر من اللحن اشد خطورة على اللغة من المظهرين الآخرين لما يترتب عليه من « تشويه اللغة » وطمس المعاني واضطرابها ، بالاضافة الى ما اطمأنوا اليه من ضخامة الجهود النحوية التي تقي من « اللحن » في الاهراب بالنسبة للجهود في بنية الكلمات ووضع القوانين لها .

ثالثا : من نماذج الخطا في التركيب والاهراب :

1 - تقول (شكرت لك ونصحت لك) ولا يقال (شكرتك ونصحتك) وقد نصح لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب ، قال الله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم) (5) .

2 - قال الاخفش : اخبرني المبرد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

وقد مضت لي عشرونان ثنتان

فقلت له : ايها الامير ، هذا لحن ، لان امرابا لا يدخل على امراب (6) .

3 - من اللحن قولهم (العوام) فيه تبارك وتعالى (هذه صفة ذاته ، وهو مبين بالذات) قال محمد (الزبيدي) ولا يجوز ان يلحق الالف واللام (ذو ولا ذات) في حال افراد ولا تثنية ولا جمع ، ولا تضاف الى المضمرات ، وانما تقع ابدا مضافة الى

(1) 253 - 255 .

(2) تقويم اللسان ورقة 25 .

(3) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة - 104 .

(4) ما تلحن فيه العوام ص 25 .

(5) البوشح ص 357 .

الظاهر ، - ألا ترى أنك لا تقول (الدو ولا الدوان ولا الدون ولا الذات ولا الذوات ولا ذوه ولا ذوها ولا ذوهن ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذاته ولا بذاتك) وقد غلط في ذلك أهل الكلام وأكثر المحدثين من الشمره والكتاب والفقهاء (1) .

4 - قال أبو زيد الأنصاري : لقيت أبا حنيفة ، فحدثني بحديث فيه (يدخل الجنة قوم حفاة حراة منتنين قد أحسنتهم النار) فقلت له : إنما هو (منتنون قد محسنتهم النار) فقال : ممن أنت؟؟ فقلت : من أهل البصرة ، فقال : أكل أصحابك مثلك؟؟ قلت : بل أنا أخسهم حظا في العلم ، فقال : طوبى لقوم يكون مثلك أخسهم حظا (2) .

5 - ويقولون (ادخل باللص السجن) والصواب أن يقولوا (ادخل اللص السجن) لأن الفعل تارة يعدي بهمة النقل كقولك (خرج وأخرجته) وتارة بالباء ، كقولك (خرج وخرجت به) فاما الجمع بينهما فممتنع (3) .

6 - العامة تقول (فعل الغير ذاك) فيدخلون على (غير) أداة التعريف ، والمحققون من النحويين يمنعون من ادخال الالف واللام عليه ، لأن المقصود بدخول آلة التعريف على النكرة أن تخصصه لعينه ، فاذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى كثرة (4) .

7 - والعامة تقول (لا افعل هذا قط) في المستقبل (ولا افعله أبدا) وهو غلط ، والصواب أن تقول في الماضي (ما فعلت هذا قط) أي فيما انقطع من عمري (5) .

8 - (غير) اسم ملازم للإضافة في المعنى ، ويجوز أن يقطع عنها لفظا ، أن فهم المعنى وتقدمت عليها كلمة (ليس) ، وقولهم (لا غير) لحن ، ويقال (قبضت عشرة ليس غيرها) (6) .

(1) لحن الموام ص 12 .

(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 38 .

(3) - 4 تصحيح التصحيف وتحريف ورقة 59 - 240 .

(5) تصحيح التصحيف وتحريف ورقة 254 .

(6) المغني ج 1 ص 157 .

(7) المغني ج 1 ص 651 .

(8) رسالة في غلط الموام ورقة 122 .

9 - (عند) لا تقع إلا ظرفا أو مجرورة بمن ، وقول العامة (ذهب إلى عنده) لحن (7) .

10 - ونقول (ما رأيت من أمس ومن أيام) وهو غلط ، لأن (من) تخص المكان ومذ ومنذ يختصان الزمان (8) .

وبلاحظ على الأمثلة العشرة السابقة أن الكثير منها يتعلق بتأليف التركيب العربي ، والأمير الذي استقر عليه هذا التأليف بين النحاة ، وما جاء مخالفا للطرائق المنظمة لذلك ، ينبغي أن يدخل دائرة «اللحن والخطأ» كما هو واضح تماما في (ادخل باللص السجن) و (شكرت لك ونصحت لك) و (لا افعل هذا قط) والصحيح فيه (ما فعلت هذا قط) وكذلك (لا غير) والقواعد تقضي بأن التعبير الصحيح هو (ليس غير) - كما أن بعض الأخطاء تعود - في نظر النحاة - إلى استخدام الأدوات بطريقة غير ما استقر عليه الأمر - وبخاصة حروف الجر - كما في (ذهب إلى عنده) وصحتها (جئت عنده) و (جئت من عنده) وكذلك (ما رأيت من أمس) وتقضي القواعد استخدام (منذ) في هذا الموضع - كما يعود اللحن هنا كذلك إلى الشكل الإمروبي ، وخروج الكلام عن مقتضاه ، كما في (مشرونان) إذ قال المبرد منبها على الخطأ فيها « أيها الأمير ، هذا لحن ، لأن امرأيا لا يدخل على امرأب » وكذلك قول أبي حنيفة (يدخل الجنة قوم حفاة حراة منتنين) حيث صححها له أبو زيد الأنصاري بقوله (منتنون) تنبيها على الخطأ الإمروبي في الصيغة .

وطريقة تأليف الكلام واستخدام الأدوات النحوية والأمرواب كلها من المباحث التي يتناولها النحو مع غيرها من المباحث التي تتعلق بالتركيب اللغوي وأسواره .

والذي أفهمه أن إيراد مثل هذه الأخطاء النحوية في دراسة « لحن العامة » هو إيراد لما حدث في « اللغة الفصحى » وفي الاستعمال الخاص لهذه اللغة

اللحن على أن النحاة أنفسهم قد خطأوا فيما بعد قول
النابغة الذبياني :

نبت كاني ساورنني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم نافع

وقالوا : كان حقه أن يقول (نافعا) لا (نافع)
فإن النكرة لا تصف المعرفة .

وعلى كل حال فإن كلمة « اللحن » قد ترددت بين
العرب مع ظهور الإسلام فيما نقل عن هذه المبكر ، إذ
نقل أن الرسول (ص) قال : أنا من قريش ، ونشأت
من بني سعد فاني لي اللحن ، ونقل عن الصديق (ص)
قوله : لأن اقرا فاسقط احب الي من أن اقرا فالحن .
وكان قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق
أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب وجاء فيه
« من أبو موسى الأشعري » وما رد عليه عمر من قوله :
أضرب كاتبك سوطا واحدا واجز عطاءه سنة (2) .

فإن هذه الروايات المتناثرة - أن صحت - تدل
على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك
العصر الإسلامي المبكر ، إذ أن استخدام اللفظة في
ذلك الوقت المبكر وفهم المقصود منها حينذاك قد
سبقه ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم ، وفي
ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية
وإن لم ينقل ذلك وتنقل مظاهره .

وحين تأخر الزمن قليلا - في عهد الأمويين في
القرن الأول الهجري - أصبح اللحن قضية ذات
خطر في استعمال اللغة ، وهذا طبيعي ! إذ اتسعت
الدولة الإسلامية ، وكثرت دواهي الاختلاط بالأجانب
من الحرب والجوار والخدمة والمعايشة ، وجاءت من
ذلك روايات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين
الخاصة وفي حضرة الخلفاء ، وهي لهذا السبب
نفسه استحققت الرواية والتناقل ، ولنا أن نتخيل
الخطأ الكثيرة مما لم ينقله أحد أو يعني به ، لأنه كان
يحدث بين الناس العاديين من جمهرة العرب
والمسلمين ، وأكبر الدلالة على ضخامة ذلك وكثرته أنه
كان سببا في بداية النحو العربي حول النصف الأول
من القرن الأول الهجري على اختلاف الرواة فيمن
نسب إليه تلك النشأة .

في مجالات المواقف الجادة من القول بين العلماء
والخاصة ، ويصح بناء على ذلك قبول ما رآه بعض
الدارسين من أن « المصوام » الذين أضيف إليهم
« اللحن » في كتب « لحن المصوام » هم مصوام
العلماء والخاصة ، فهو رأي يقبل من هذه الأخطاء
القليلة التي تتعلق بالتركيب والاصراب أما ليسر
ذلك من مظاهر اللحن المتعلقة بالمعاني أو بنية الكلمات ،
وكذلك في هذا المظهر في إضافته إلى العامة من
الناس العاديين ، فأغلب ظني أن كل ذلك كان شائعا
إلى حد الكثرة ، وأنه لم يكد القرن الثاني ينقضي
حتى تنوعت الماميات وكثرت الأخطاء بين الناس
العاديين والمتخصصين على سواء .

لكن : متى بدأ اللحن في الكلام العربي وكيف
تطور ؟

لا يستطيع الوصول إلى حقيقة حاسمة من هذه
الظاهرة في العصر الجاهلي - شأنها في ذلك شأن
كثير من ظواهر اللغة والأدب من هذا العصر - فإن
كثيرا من شؤون الجاهلية تكاد تكون مطبوسة
تماما ، أو على الأقل غير مؤكدة ، إذ تعتمد على الظن
الغالب لا الأدلة المتينة ، والغالب أن اللغة العربية في
العصر الجاهلي كان لها مستويات متعددة ، تختلف
فيما بينها باختلاف القبائل وعرف كل قبيلة في
لهجتها ، وأن اللغة العامة التي كانت وسيلة التفاهم
بين الجميع حدث فيها أحيانا اللحن والخطأ ، ولو صح
أن الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن إلى
العصر الجاهلي ، لجاءتنا كتب في « لحن العامة » من
هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما
تلاه حين نظجت الدراسة وتنوعت ، وكان اللحن أحد
المظاهر التي اهتمت بها . وقد روى أن طرفة بن العبد
قال وهو صغير :

يا لك من قبرة بمعمر
خلأ لك الجو قبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري
قد رفع الفخ فماذا تحلدي

لا بد يوما أن تصادي قاصبري (1)

لما هو الوصف الذي كان من المتوقع أن يطلقه
النحاة على عبارة (ماذا تحلدي) غير الضرورة أو

(1) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج 3 ص 110 .

(2) انظر : مراتب النحويين ص 5 - 6 .

والعنف مع من يلحن في كلامه كما هو واضح في ذلك الانتكار والردع من الحجاج لهند بنت أسماء - كما تدل في الجانب المقابل على أن «الخلو من اللحن» يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه الفخر والثناء ، كما هو واضح من أسلوب الإعجاب الذي يقرر به الاصمعي هذه الحقيقة من الشمبي وعبد الملك والحجاج وابن القرية .

فما روي من « مواقف اللحن » في القرن الاول الهجري قد لا يسه العار والاحتقار أو الانتكار والردع ، أو استحقاق من يعري عنه الفخر وحسن الذكر مما يفهم منه أن اللحن كان يمثل في ذلك الوقت أمرا جديدا خطيرا ، أو بعبارة أدق : أن شيوعه بين الناس كان ظاهرة جديدة خطيرة يستحق من يبرا منها الثناء والشكران ، كما يستحق مرتكبها الزجر والتكران .

فإذا ما تأخر الزمن الى القرن الثاني الهجري - وبخاصة النصف الثاني منه وما تلاه - أصبح ما كان احساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا ، وما كان مواقف متناثرة تذكر فتنكر أمرا شائعا بين الناس من غير تكبر ، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ، ففي رواية اللغة رحل العلماء للبادية ، وانصرفوا عن الحضرة بعد أن شاع فيه اللحن ، فلم تعد اللغة - في نظرهم - أهلا للنقل والاحتجاج ، وفي الدراسة اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجودا بين أيدينا الآن من « ما تلحن فيه العامة »

قال الرشيد يوما لبنيه : ما ضر احدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر احدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته (4) !!

ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين انه قد لحن . فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : ان طباع أهل البدو الأعراب ، وطباع أهل الحضرة اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم اللحن ، وإذا رجعت الى الطبع لحن ، فاستحسن الرشيد كلامه (5) .

* كان لخالد بن يزيد بن معاوية أخ ، فجاه يوما فقال : ان الوليد بن عبد الملك يعيبني ويحتقرني ، فدخل خالد على عبد الملك - والوليد عنده - فقال : يا أمير المؤمنين ، ان الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره - وعبد الملك مطرق - فرفع رأسه وقال : (ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها - الآية) فقال خالد (وإذا أردنا أن نهلك قرية - الآية) فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمني وقد دخل علي فما أقام لسانه لحنًا !! فقال خالد : أفعلى الوليد تمول ؟ فقال عبد الملك : ان كان الوليد يلحن ، فان أخاه سليمان ، فقال خالد : وان كان عبد الله يلحن ، فان أخاه خالد - في كلام كثير طويل (1) .

* تكلمت هند بنت أسماء بن خارجة ، فلحنت وهي عند الحجاج ، فقال لها : اتلحين وانت شريفة في بيت قيس !! فقالت : اما سمعت قول أخي مالك لامراته الانصارية ؟ قال : ما هو ؟ قالت : منطلق صائب وتلحن أحيانا

وخير الحديث ما كان لحنًا فقال لها الحجاج : انما منى أخوك اللحن في القول - اذا كنى الحديث مما يريد - ولم يعن اللحن في العربية فأصلي لسانك (2) .

* وروي عن الاصمعي قوله : أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل ، الشمبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج أفصحهم (3) .

والواضح من هذه الروايات الثلاث انها جاءت من شخصيات لها تميزها في العصر الأموي سواء من حدثت منه أو من حدثت في حضرته أو من قبلت منه ، ويعود هذا التميز الى أنهم من اصحاب الحكم أو من أهل العلم في العصر الأموي ، فكيف كان الأمر بين العوام من الناس ؟ ومع ذلك فانها تدل على العار والاحتقار اللذين يتعرض لهما من « يلحن » في حديثه ، كما هو واضح في تلك الملاحظة الحادة بين خالد بن يزيد وعبد الملك من عبد الله بن يزيد والوليد ابن عبد الملك كما أن فيها دلالة على التشدد

(1) صبح الامشى ج 1 ص 168 .

(2) أمالي المرتضى - القسم الاول ص 15 .

(3) أمالي الزجاجي ص 20 .

(4) صبح الامشى ج 1 ص 168 .

(5) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

على طرق السابلة ، وبقرى مجامع الاسواق (2) «
وإذا كان اللحن قد امتد الى هؤلاء الاعراب والعلماء
المتقمرين فى نطق اللغة ، فلنا ان نتصور ما كان بين
عامة الناس الذين لا يجيدون اللغة بالطبع او بالصنعة .
اما فى القرن الرابع الهجري - الذى انهى فى
آخره الاستشهاد - فقد وصل الامر الى مده ، وطفى
اللحن على الخاصة والعامة وعلى اصحاب الطبع فى
البادية واصحاب الصنعة فى الحضر .

* يقول الامدي : والمتأخرون لا يكادون
يسلمون من اللحن ، وهذا فى اشعارهم كثير جدا (3) .
* ويقول ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر
الناس يظن على متعلمي العربية جهلا وتمديا حتى
انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال :
النحو اوله شغل ، وآخره بغي (4) .

والامدي وابو جعفر النحاس من علماء القرن
الرابع الهجري الذين عاصروا فترة نهاية الاستشهاد
باللغة الذى كان من اهم عوامله شيوع اللحن بين
الناس حتى الشعراء انفسهم ، واصبح اللحن لا
يكاد احد من المتأخرين يسلم منه - كما يقول الامدي
من معاصريه - وصار اكثر الناس يظن على متعلمي
العربية جهلا وتمديا - كما يقول النحاس - ومن قبل
كان تعلم العربية من الامور التى يتوأسى بها الناس ،
ويحضى عليها الخلفاء والحكام ، وهكذا انقلب الامر ،
فأصبح تعلم العربية من طريق الصنعة التحوية موضع
سخرة الناس « والنحو اوله شغل وآخره بغي » -
تماما كما كنا نعيش اليوم فى عصرنا الحاضر .

وليس من المفيد كثيرا ان نتابع تطور « قضية
اللحن » بعد عصر الاستشهاد ، فقد أصبح « اللحن »
هو القاعدة بين الناس فى حياتهم العامة ، وتسرب
الى التأليف العلمي نفسه ، كما هو واضح فى بعض
موسوعات التاريخ فى القرن السادس وما بعده -
وستاني نماذج من ذلك - حتى قال احد المتأخرين
« ان اللحن قد فشا فى الناس واللسنة قد تغيرت ،
حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام
الفصحى حيا (5) » .

لماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

* وكان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى
الزلاجات اذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ،
فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء
شعرا يفتون فيه ، فوجه الى ابي العتاهية - وهو
سجين - فمنع لهم « زهديته » التى ابكت الرشيد
حين سمعها منهم ، وفيها :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنسوح

لتموتن وان عمرت ما عمر نسوح (1)

وقد اخترت هذه النماذج الثلاثة قصدا عن
« عهد الرشيد » الذى عاصر الفترة الاخيرة من
القرن الثاني ، وهي تدل على الامور الآتية :

ان اجادة الفصحى أصبحت صنعة يبحث
الرشيد ابنائه على الاخذ منها بما يصلح للسان كيلا
يكونوا كمن يخالطونهم من العبيد والاماء فى اللحن
والخطا .

وان العلماء انفسهم كانوا يلحنون فى حياتهم
العادية ، ولم يروا ذلك عيبا يفض من شأنهم ، وقد
اعترف بذلك الفراء قائلا « اذا حفظت او كتبت لم
الحن ، واذا رجعت الى الطبع ، لحنن » ونال هذا
الاعتراف استحسان الرشيد ، لانه الحقيقة .

وان العامة كانوا اشد من ذلك لحننا ، ويمثلهم
هؤلاء الملاحون فى الزلاجات الذين يفتون على مقتضى
طبيعتهم ، فيعجب غناؤهم الرشيد لكنه يتأذى بفساد
كلامهم ولحنهم ، فمنع من نفسه التأذى بتقديم الكلام
الفصحى لهم لكن من الذى يمنع ذلك منهم او من
غيرهم حين يفتون او يتكلمون فى غياب الرشيد !!

وقد استمرت موجة اللحن قوية مندفعه ،
واطردها نموها بتأخر الزمن ، فالقرن الثالث اقل حظا
فى الفصاحة من القرن الثاني ، وفى الجانب المقابل
عظم اللحن اكثر من ذى قبل .

وقد روى الجاحظ نوادر كثيرة من « اللحن فى
القرن الثالث » فى كتابه البيان والتبيين مما سمعه
ووصفه ، وعابه على من يتكلمون الفصاحة من علماء
اللغة والاعراب ، فقال : « ان اقبح اللحن لحن اصحاب
التعريب والتقميع والتشديق والتعطيط والجهورية
والتفخيم ، واقبح من ذلك لحن الاماريب الناليسن

(1) انظر : الاغانى ج 3 ص 171 .

(2) البيان والتبيين ج 1 ص 146

(3) الموائنة ج 1 ص 416 .

(4) صبح الامشى ج 1 ص 171 .

(5) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

لقد نظر علماء اللغة اليه من زاوية « الخطأ »
فقاوموه بمنف ، ومع ذلك لم ينتصروا في معركتهم
معه ، بل أن العكس هو الصحيح ، إذ انتصر اللحن
بغلبة الاستعمال وقهر المجتمع اللغوي التطور
باستمرار .

وقد بدأت هذه المقاومة منذ القرن الثاني
الهجري ، واستمرت فيما تلا ذلك من عصور
والجدول الآتي « لكتب لحن العوام » ومؤلفيها - مما
عرفته على قدر جهدي - يوضح ذلك :

الاشارة الى ما هو موجود	المؤلف وتاريخ وفاته	اسم الكتاب
مطبوع	عني بن حمزة الكسائي (172)	1 - ما لحن فيه العوام
	يحيى بن زياد الفراء (207)	2 - ما يلحن فيه العامة
	لابي عبيدة معمر بن المثنى (210)	3 - ما يلحن فيه العامة
	لابن نصر احمد بن حاتم الباهلي (231)	4 - ما يلحن فيه العامة
مطبوع	لابي السكيت يعقوب بن اسحاق (244)	5 - اصلاح المنطق
	لابي عثمان المازني (248)	6 - ما يلحن فيه العامة
	لابي حاتم السجستاني (250)	7 - ما يلحن فيه العامة
مطبوع	لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (276)	8 - تقويم اللسان (ادب الكاتب)
	لابي حنيفة احمد الدينوري (290)	9 - لحن العامة
	لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب (291)	10 - ما يلحن فيه العامة
	لابي الهيثام كلاب بن حمزة العقيلي (300)	11 - ما يلحن فيه العامة
	هاشم بن احمد الحلبي (377)	12 - اللحن الخفي
مطبوع	لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (380)	13 - لحن العوام
	لابي هلال العسكري (395)	14 - لحن الخاصة
مطبوع	عمر بن مكي الصقلي (501)	15 - تنقيف اللسان
مطبوع	لابي محمد القاسم بن علي الحريري (516)	16 - درة الفواص
مطبوع	لابي منصور الجواليقي (539)	17 - تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة
مصور	لابي الفرج عبد الرحمن الجوزي (597)	18 - تقويم اللسان
مصور	ابن هشام محمد بن احمد اللخمي (600)	19 - لحن العامة
مصور	محمد بن احمد بن جامع (727)	20 - ناظر لسان عين المعاني
	لابن هاني محمد بن علي السبتي (733)	21 - لحن العامة
مخطوط	جلال الدين السيوطي (911)	22 - غلطات العوام
مطبوع	لابن كمال احمد بن سليمان (940)	23 - التنبيه على غلط الجاهل والنبه
مطبوع	رضي الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي (971)	24 - بحر العوام فيما اصاب فيه العوام
مصور	مصطفى بن محمد خسرو زاده (1000)	25 - غلطات العوام
مطبوع	محمد صديق بن حسن البخاري (1307)	26 - لف القمط لتصحيح ما استعملته العامة
مصور	(مجهول)	27 - الغلط العوام والخواص
مصور	(مجهول)	28 - سقطات العوام
مطبوع	حسن توفيق العدل (1322)	29 - اصول الكلمات العامية
مطبوع	حسن علي البدرابي ()	30 - تهذيب العامي والمحرف

ملاحظات على مقاومة العلماء للحن :

1 - بنظرة واحدة الى الجدول السابق الذى امكنني معرفة ما فيه من كتب لحن العوام - الموجود منها والمفقود - يتضح ان مقاومة العامة كان شديدا في القرن الثاني والثالث والرابع ثم بدأ يقل تدريجيا بعد ذلك ، ولهذا دلالة ، حيث قاوم العلماء بقوة مظاهر اللحن في الفترة التى كانت اللغة موردا للدراسة ، والصلة قريبة بين المادة التى اعتقدوا تقاوتها حين ترد من البادية ، وبين تنقية الفصحى المستخدمة فى الحضر قياسا عليها .

2 - كان من المفترض ان تعتمد التنقية على استقراء لاستعمال اللغة التى يعاصرها المؤلفون والتى تستعمل بين الناس فى عصره ، ولكن الذى حدث - فيما اطلمت عليه منها - لم يكن كذلك ، بل اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، فكانوا ينقون غالبا ما أورده من سبقوهم فى كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة فى « تقويم اللسان » على ابن السكيت فى « اصلاح المنطق » واعتمد الزبيدي فى « لحن العوام » على من سبقه من العلماء ، فكان يذكر اسماءهم دون كتبهم - واعتمد ابن الجوزي فى « تقويم اللسان » على كتب من سبقوه ، وذكر فى مقدمة الكتاب انه جمع فيه ما رآه مبددا فى كتب من سبقوه ، وانتخب من ذلك ما تم به البلى دون ما يشد استعماله ويندر ، ونقل السيوطي كتاب ابن الجوزي برمته ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « غلطات الصوام » .

3 - يلاحظ انه يقصد بالعوام والعامة فيما اطنمت عليه من تلك الكتب الناس العاديون بدليل النص احيانا على الخواص والخاصة ، ولكن الذى قصدوه بالتنقية هو اللغة الفصحى بعد ان أصبحت تستعمل فى مستوى خاص ، وتسرب اليها « لحن العوام » فبقيت النسبة الى العوام ، وان كان المقصود بذلك ما حدث فى اللغة الفصحى التى يستعملها الخاصة ، وبذلك نفهم قول الزبيدي (فى مقدمة كتابه « لحن العوام » ص 8) « فهذا مما افدته العامة عندنا ، فأحاولوا لفظه او وضعوه غير موضعه ، وتأبهم على ذلك الكثرة من الخاصة ، حتى ضمنتها

الشعراء الشعراء ، واستعمله جلة الكتاب ومنية الخدمة فى رسائلهم ، وتلاقوا به فى محافلهم ، فرأيت ان أنبه عليه ، وأبين وجه الصواب فيه » .

وعلى ذلك فانه لا معنى للتكلف بتوجيه معنى (العامة) الى « عامة العلماء » كما حاول ذلك بعض الدارسين فى العصر الحديث .

4 - تمنيت ان أجد فى أحد هذه الكتب حديثا من « اللحن » فكرة وموضوعا ، لكن لم تتحقق لي تلك الأمنية فى أحدها ، اذ يتجه الحديث فيها مباشرة - بعد مقدمة قصيرة - الى إيراد الكلمات وبيان خطئها او صحتها اعتمادا على النقل فى غالب الأحيان كما سبق ذلك .

5 - ومع نظرة الى هذه الجهود الطبية المخلصة فى الجدول السابق - وإلى غيرها مما لم أهره - يتساءل المرء : هل نجحت كل هذه الجهود فى حل قضية اللحن ، وإيقاف تياره المتدفق ؟ نسأل يتضح المقصود منه فى الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة النحاة الى اللحن بين القواعد والاستعمال :

ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير لا عسر فيه ، فقد نظروا اليه من زاوية « الخطأ » واعتبروه انحرافا عن الطريقة الصحيحة التى ينبغى ان يأتى عليها النطق العربى السليم ، ولم يؤخذ فى الاعتبار لديهم قوة الاستعمال وقهره ، وما يترتب على ذلك من تطور وتغير ، فان اللغة - شأنها شأن الظواهر الاجتماعية كلها - تتطور باستمرار فى معانيها وبنيتها وتركيبها ولا تخضع طويلا للقواعد المنسقة والنظام الجميل ، لان اللغة نظامها الذى يفرضه استعمالها بين المتكلمين بها ، وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادره ، وملاحظته لا تجميده ، فان المصادرة والتجميد لا يمكن تحقيقهما بالنسبة للغة نفسها ، وان أمكن ذلك بالنسبة لدراستها ومن يدرسونها .

ونظرة النحاة لما اسموه « اللحن » من زاوية « الخطأ » كان سندها « القواعد الحادة » التى وضعوها والزموا انفسهم بها ، وان لم يستطيعوا فرضها على الاستعمال المتطور باستمرار .

ويمكن توضيح ذلك وتأييده بالأمور الثلاثة الآتية :

- 1 - جهود النحاة في مقاومة اللحن ودورانها حول القواعد .
- 2 - خضوع النحاة أنفسهم لسطوة اللحن مع أنهم حراس القواعد .
- 3 - التصاعد الذي قام - واستمر قائما - بين القواعد المصنوعة وواقع الاستعمال .

لقد ارتبطت بداية النحو بحدوث اللحن ، والروايات التي رويت عن ذلك كلها تقر هذه الفكرة صراحة أو تمثيلا بوصف صورة النطق الملعون فيه والذي كان الدافع المباشر لوضع القواعد، ويبدو أن هذه الصلة بين القواعد واللحن في فترة البداية ظلت قائمة بعد ذلك مع تقدم الزمن ونضج الدراسة ، وهي صلة قوامها التناظر بين القواعد وما خرج من هذه القواعد من مظاهر اللحن ، على أن تكون القواعد - من وجهة نظر النحاة - هي الحكم في هذه المظاهر ، أو بعبارة أخرى أن القواعد هي « الصواب » وأن ما لا يتفق معها من مظاهر الاستعمال هو « الخطأ » .

* قال ابن سلام : اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراً الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم (1) .

* وردى القفطي عن أبي الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين علي - عليه السلام - فأخرج لي رقعة فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) قال : فقلت : ما دعائك إلى هذا ؟ قال : رأيت فسادا في كلام بعض أهلي ، فأحببت أن أرسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ ، فأخذ أبو الأسود النحو من علي - عليه السلام - ولم يظهره لأحد (2) ، ثم أظهره فيما بعد .

- (1) طبقات فحول الشعراء ص 12 .
- (2) أنباء السرواه ج 1 ص 5 .
- (3) ما تلحن فيه العامة ص 25 .
- (4) إصلاح النطق ص 188 .

وينبغي التوقف في فهم هاتين الروايتين عن نشأة النحو عند عبارتين فيهما هما (غلبت السليقة ولم تكن نحوية) و (رأيت فسادا في كلام بعض أهلي فأحببت أن أرسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ) فإن هاتين الروايتين تؤيدان ما نزعناه من طبيعة الصلة بين القواعد والسليقة غير النحوية التي يطلق عليها « اللحن » منذ البداية ، واتخاذ القواعد - منذ البداية أيضا - سلطة للتمييز بين « الصواب والخطأ » كما قال - عليه السلام - أن صحت نسبة الرواية الثانية .

وقد بقي هذا الفهم نفسه قائما على مدى الزمن ، إذ طبقة الدارسون ، وخضع له الناطقون بل ازداد مع تقدم الزمن قوة ولبانا ، وفي الوقت نفسه اطرء نمو طرفي القضية من « القواعد » و « السليقة غير النحوية » فزادت مؤلفات النحو تضخما ، وفي الجانب المقابل كان اللحن يزداد انتشارا ، وحين ألف سيبويه « كتابه » كان اللحن في الحضر خطرا صرف العلماء عن لفته إلى البداية .

كما أنه بالاطلاع على الكتب التي ألفت نصا في مقاومة اللحن - مر جدول عرضها في الفقرة السابقة - يتضح فيها هذا الفهم نفسه الذي يجعل القواعد مقياسا للصواب فيما رسم باللحن والخطأ من معاني الكلمات وينبئها وتراكيبها ، ويشبين ذلك في طريقة العرض أو في ذكر القواعد أحيانا لتصحيح الخطأ .

* قال الكسائي : وتقول : شكرت لك ونصحت لك ، ولا يقال : شكرتك ونصحتك وقد نصح فلان لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب (3) .

* وقال ابن السكيت : باب ما جاء على (فعلت) بالفتح مما تكسره العامة أو تضمه يقال (ما عسيت أن أصنع) قال الله جل ذكره (لعل عسيتم أن توليتم) ولا ينطق منها باستقبال (4) .

* وقال الحريري : يقولون : (انضاف الشيء إليه وانفسد الأمر عليه) وكلا اللغتين ليستا من كلام

العرب ، وإنما يقال (اضيف الشيء اليه ولسد الامر عليه) فلا يأتي منهما ذلك (1) .

فهذه نماذج يتبين منها كيفية الطريقة التي سلكها العلماء في جهودهم لمقاومة اللحن ، وإذا كان الكسائي يصحح الخطأ قائلا (هذا كلام العرب) فإن السكيت والحريري يذكران « القواعد » مقاييس التصويب للاستعمال الموسوم بالخطا واللحن ، لقاعدة ابن السكيت في المثال السابق هي « ما جاء على فطت بالفتح مما تكرره العامة او تضمه » وقاعدة الحريري « المطاوعة تأتي من الثلاثي المتعدي ، أما الثلاثي اللازم فلا يأتي منه ذلك .

هذا هو طابع الجهد الذي بذل في مقاومة اللحن ، يلخصه انه « التمسك بالقواعد اساسا للتصويب ، وإيراد ما لا يوافق من مادة اللغة للحكم عليه بالتخطئة »

أما الامر الثاني الذي يدل على سطوة القواعد على اذهان الدارسين بمقدار ما يدل على سطوة الاستعمال على السنة المتكلمين فيمثل تلك المفارقة الطريفة من افراد من علماء النحاة نسب الى بعضهم انه كان يتقعر ويغرب في حديثه على الناس حتى لا يكاد يفهم ، ونسب الى البعض الآخر انه كان يلحن في كلامه ، وربما اترف أحيانا بوقوع ذلك منه ، ولم يعتبره شيئا بغض من شأنه .

وعلى الرغم من ان هذين المظهرين يمثلان طرفين متباينين في الكلام فإن النظرة المدققة تكشف انهما يصدران من ظرف لغوي واحد هو « سطوة الاستعمال » الذي وصفه ابن سلام بقوله « غلبت السليقة ، ولم تكن نحوية » فقد دلح ذلك بعض النحاة التي التظاهر أحيانا من التمكن من تلك السليقة النحوية : فأهربوا في حديثهم ولغموه ، واستسلم آخرون للاستعمال اللغوي الشائع ، فغضموه له معترفين بأنه الواقع وان خالف قوانين النحو وقواعد الاعراب .

ومن النحاة الاول الذين روي عنهم التقصير والاعراب عيسى بن عمر الثقفي (ت 149) الذي روي عنه ذلك في كتب الطبقات التي ترجمت له ، ومن ذلك هذا الموقف الطريف الذي كان يضرب فيه بالسياط لوديعة اصحابها وهو يصيح قائلا : « والله

ما كان الا ايبابا في اسياط قبضها مشارولا (2) » وروي ذلك أيضا عن أبي علقمة النحوي الذي ساق السيوطي منه المشهد الطريف التالي :

* مر أبو علقمة يوما على عبد حبشي وصقلي ، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الأرض فأدخل ركبتيه في بطنه ، وأصابه في عينيه ، وهض اذنيه ، وضربه بمعا فشجه ، وأسال دمه ، فقال الصقلي لأبي علقمة : أشهد لي ، فمضوا الى الأمير : فقال له الأمير : بم تشهد ؟! فقال : أصلح الله الأمير ، بينا أنا أسير على كودني ، إذ مررت بهذين العبدين ، فرأيت الاسم قد مال على هذا ، لا يتبع ، فخطاه على فدفد ، ثم ضفطه برضفتيه في أحشائه ، حتى ظننت انه تلعج جوفه ، وجعل يلج بشانره في جحمتيه يكاد يفتقهما ، وقبض على صنارتيه بيديه ، وكاد يحدهما ، ثم علاه بمنسأة كانت معه ، فمجنفه بها ، وهذا اثر الجريان عليه بينا .

فقال الأمير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال أبو علقمة : قد فهمناك ان فهمت ، واعلمناك ان علمت ، وأدبت اليك ما علمت وما أقدر ان اتكلم الفارسية .

فجهد الأمير في كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم كشف الأمير رأسه ، وقال للصقلي : شجني خمسا ، وأعفني من شهادة هذا (3) .

وقد يشير هذا المشهد ابتسامة الشفقة على أبي علقمة الذي يحمل نفسه هذا الجهد الثقيل من التقصير والاعراب ، أمام الأمير الذي يعاصره ولكنه لا يستطيع فهم كلامه ، لانه يمثل الاستعمال العادي للكلام ، ومع ذلك فإن لأبي علقمة من ظروفه الخاصة ومن ظروف عصره ما يقدم له المصدر في طريقته الفريية ، فهو نحوي قام في نفسه ان الكلام العادي داخله الفساد ، ومن حقه ان يستعمل طريقة توافق لغة النحو التي يستنبط منها قواعده .

أما لحن علماء النحو في حياتهم العادية واعترافيهم بذلك ، فهو مظهر مهم ، إذ ان في هذا الاعتراف نفسه دلالة على سطوة الاستعمال حتى

(1) درة الفواص ص 22 .

(2) معجم الادباء ج 16 ص 149 .

(3) بنية الوعاة ج 2 ص 139 .

على النحاة الذين يناصرون القواعد ، ويفرضون سلطانها على الاستعمال اللغوي .

* أورد الإصفهاني أن مروان بن أبي حفصة وجه كلامه لحمد الرواية في حضرة الوليد بن يزيد فقال : ما كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين وهو لحانة !! فتهاقت الشيخ ، ثم قال : يا ابن أخي ، أنا رجل أكلم العامة ، وأتكم بكلامها (1) .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلمة لحن فيه ، فقال له جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين إنه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى !! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طباع أهل البدو الأعراب وطباع أهل الحضرة اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم اللحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحننت ، فاستحسن الرشيد كلامه (2) .

* وقال أبو الطيب اللغوي : كان على المديني لا يغير الحديث وأن كان لحنًا ، إلا أن يكون من لفظ النبي (ص) فكانه يجوز اللحن على من سواه (3) .

فهذه المواقف المتناثرة - على قلتها - قد اترف فيها بعض النحاة على أنفسهم باللحن وأنهم يخضعون له جرياً على استعمال بقية الناس ، لكنهم في مجال الدراسة ، لم يأخذوا ذلك في الاعتبار ، بل حكموا القواعد في ذلك ، وحكموا على مظاهر اللحن بالخطأ

أما الأمر الثالث والآخر - فيما نحن بصدده - فهو التصدع بين القواعد المصنوعة واستعمال اللغة ، وهذا أمر حدث مبكراً ، ونقلنا إلينا بعض نماذجه في المشاحنات التي كانت تحدث بين العلماء والشعراء ، ومن ذلك ما حدث بين أبي إسحاق والفردق وبين الأخفش وشار وبين ابن خالويه والتمني - ونماذجه أشهر من أن تذكر - وفي هذه المواقف - على قلتها - يتمثل أيضاً الصراع بين القواعد في يد النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يخضع لتلك القواعد .

وإذا كانت تلك المواقف القليلة تمثل هذه الظاهرة فقط ، فإن واقع الأمر أخطر من ذلك وأكثر ، إذ أن مظهر الصراع بين القواعد التي استمسك بها النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يتوافق مع تلك القواعد - على الأقل منذ القرن الثاني الهجري - ترتب عليه

اتساع الهوة دائماً بين طرفي القضية ، فعانى النحاة من ذلك قديماً ، وما زالت هذه المعاناة قائمة حتى اليوم .

أخيراً :

يتضح من عرض الأمور الثلاثة السابقة لمؤلف النحاة مما أطلق عليه « اللحن » تأييد ما افتتحت به هذه الفقرة من رؤياهم له من زاوية « الخطأ » وأن الذي وجه هذه الرؤية هو مقياس (القواعد لا الاستعمال) وضع ذلك في جهودهم اللغوية ، وبعض مواقف حياتهم الشخصية ، وفي هذا الفراق والخصومة القائمة بين كلا الأمرين القواعد والاستعمال .

تلك وجهة نظرهم ، أما مدى توفيقهم فيها ، فله حديث آخر في القسم الأخير من هذا البحث أن شاء الله .

— * —

« التصحيف والتحريف »

معنى التصحيف والتحريف وعلاقتها باختلاف المعنى والبنية والأعراب :

« التصحيف والتحريف » لفظتان بينهما صلة حميمة ، وقد جمعهما العلماء أحياناً عنواناً لمؤلف واحد ، كما فعل أبو أحمد العسكري في مؤلفه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » وكما فعل من بعده الصفدي في كتابه الموسوعي « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » وقد شرح « التهانوي » في « كشاف اصطلاحات الفنون » المقصود منهما في مكان واحد .

وتعود الصلة بين اللفظتين - مع التجاوز هنا فيهما من جناس لفظي - إلى أن مجال البحث فيهما - كما فهمه المتقدمون من العلماء - واحد ، وهو البحث من الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الإملائي في قراءة الحروف المكتوبة ، سواء أكان الخطأ في نطق الحروف أو شكلها أو تبادلها الإمثلة .

فالتصحيف والتحريف مظهران للخطأ في قراءة الخط المكتوب ، ويرتّب على ذلك نطق كلمة جديدة

(1) الألفاني ج 14 ص 110 .

(2) صبح الأعشى ج 1 ص 173 .

(3) مراتب النحويين ص 6 .

قد تكون صحيحة لغة ومعنى ، لكنها غير الكلمة التي قصدنا صاحبها حين نطق بكلامه ، أو نطق كلمة ذات بنية محرفة في صيغتها ، ويرجع انحرافها الى التغيير في حروفها أو الشكل الداخلي لها ، بل ان مؤلفات « التصحيف والتحريف » قد ورد فيها أحيانا أمثلة - وان كانت قليلة - لاختلاف اعرابية تعود ايضا الى الخطأ في الكتابة أو التوسع في فهم ما يطلق عليه « التحريف » بما يشمل ما يطلق عليه اسم « اللحن » ويتضح هذا المظهر الأخير في كتاب الصفدي (ت 764) « تصحيح التصحيف وتحريف التحريف » اذ اورد كثيرا من أمثلة « اللحن » في كتابه ، ويؤيد هذا نصا ما أورده في بداية كتابه من انه نقله من السابقين عليه ، وقال « لم يكن لي في هذا غير التهذيب وحسن الرصف في التجويد الا ما يشغل انتباه ذلك من تفسير وتقييد وتقرير وتمهيد » وقد حدد ما اعتمد عليه من كتب السابقين ، وكان منها ما هو نص في « لحن العوام » مثل « ما لحن فيه العامة » للزبيدي ، و « تثقيف اللسان » لابن مكى و « درة الفواص » للحريري ، و « تقويم اللسان » لابن الجوزي الخ . . فما صنعه الصفدي يحتمل امرين ، الرغبة في توضيح كتابه فأورد فيه ما يتعلق « باللحن » ايضا وان لم يكن من « التصحيف والتحريف » أو التوسع في فهم المقصود « بالتحريف » بما يشمل اللحن ايضا ، وسواء اكان هذا أو ذاك ، فان ما يهم في هذا الموضوع ان الصفدي قد اورد في كتابه كثيرا من أمثلة « اللحن » وان غيره من سابقيه قد ورد ذلك منهم على قناعة .

لكن « ليس معنى ما تقدم ان كل واحدة من اللفظتين « التصحيف والتحريف » لم تكن تستخدم الا ومعها الاخرى ملازمة لها ، فان لفظة « التصحيف » استخدمت وحدها كثيرا في مواقف الخطأ في القراءة

التي رويت امثلتها من علماء القرن الثاني الهجري مما نقلته البنا كتب الأدب العامة أو الكتب المؤلفة نصا في موضوع « التصحيف والتحريف » فيما بعد ، وقد جاءتنا هناوين تلك المؤلفات مقتصرزة على تلك اللفظة وحدها واقدماها - فيما اعلم - ما صحف فيه الكوفيون لنصولي (ت 335) و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصمائي (ت 360) ويبدو ان كلمة « التصحيف » استخدمت وحدها اولا في وصف خطأ القراءة لما هو مكتوب ، ثم انضمت اليها فيما بعد كلمة « التحريف » مع تداخل المقصود منهما أو تخصيص كل واحدة منهما بنوع من خطأ القراءة كما سيتبين بتفصيل فيما بعد .

هذه مقدمة هامة من لفظتي « التصحيف والتحريف » من حيث الصلة بين معنييهما واستخدام العلماء لهما ، لندرج من ذلك الى بيان الامور الآتية من هذين المظهرين من مظاهر الخطأ في اللغة من وجهة نظر علمائنا الاقدمين :

- 1 - التحديد النظري لمعنى « التصحيف والتحريف » .
- 2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .
- 3 - علاقة مظاهر الخطأ التي تربت على ذلك في المعنى والبنية والأعراب والبحث في اللغة مع انها تعود أصلا الى رسم الكتابة .

قبل سوق ما ذكره العلماء من معنى « التصحيف والتحريف » ينبغي اولا معرفة انواع التغيير التي يمكن ان تحدث في قراءة الكتابة العربية ، ويترتب عليها رواية خاطئة ، وهي اربعة يوضحها للجدول الآتي :

تغيير في الحروف		تغيير في الحركات		تغيير في النقط	
تغييرها	الكلمة	تغييرها	الكلمة	مقابلها	الكلمة
لو قرا قاريء في المصحف (ان الله يريء بين	المباي	جمهور	جمهور	النوم	الثوم
المشركين ورسوله	بفغان	دمشق	دمشق	الفصل	العسل
يكسر اللام في (رسولله)	راجل	عفريت	عفريت	رجل	رحل
	عن الله من	رصاص	رصاص	غم	مم
	وخيل	قنديل	قنديل	القاضية	القاصية
	سراينة				

وهذه النماذج السابقة قد ورد لها مواقف ونصوص تؤيدها ليس هنا مجال ذكرها ، فان القصد من ذكرها هنا ايضاح انواع التغير تمهيدا لايراد آراء العلماء من التصحيف والتحريف .

✽ قال حمزة الاصفهاني : اجاب اهل المعاني في معاني التصحيف فقالوا : ان يقرأ الشيء بخلاف ما اراده كاتبه ، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته ، واما لفظ (التصحيف) فان اصله ، - فيما زعموا - ان قوما كانوا اخذوا العلم عن الصحف من غير ان يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه ، اي : روه عن الصحف ، ومصدره (التصحيف) مفعوله (مصحف) فاما (المصحف) فماخوذ من (اصحف اصحافا) واصله ان الصحف جمعت فيه ، فقليل : قد اصحف - ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز (1) .

✽ قال ابو احمد العسكري : فاما معنى قولهم (المصحفي والتصحيف) فقد قال الخليل : ان الصحفي الذي يروي الخطأ على قراءة الصحف باشباه الحروف . (2)

✽ قال المراكشي : المخالفة في الحديث ان كانت بتغيير حرف او حروف مع بقاء صور الخط ، فان كان ذلك بالنسبة للنقط فالمصحف ، وان كان بالنسبة للشكل فالمحرف . . واما اللحن فمما يرجع للاعراب (3)

✽ قال التهانوي : قالوا : مخالفة الراوي للثقات ان كانت بتغيير الحروف او الحروف مع بقاء صورة الخط في السياق ، فان كل ذلك بالنسبة الى النقطة يسمى ذلك الحديث (مصحفا) وان كان بالنسبة الى الشكل والاعراب سمي (محرفا) - وابن الصلاح وغيره سمي القسمين (محرفا) . (4)

ومن هذه الروايات الاربعة لا يخرج المرء بتحديد حاسم موحد للمقصود بكل من التصحيف والتحريف ،

ولا يخرج كذلك بتحديد حاسم لما يشمل التصحيف والتحريف من انواع التغير السابقة اذ ان الذي يفهم من حديث الاصفهاني والمسكري من (التصحيف) انه كما قال اولهما نصا « ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز » فهو اذا مطلق تغيير او تبديل في قراءة الشيء على غير ما اراده كاتبه - كما عرفه الاصفهاني - او رواية الخطأ على قراءة الصحف باشباه الحروف - كما عرفه العسكري رواية من الخليل - سواء اكان ذلك في النقطة او الشكل او الحروف .

لكن المراكشي يفرق فيما تناوله من التغير الذي يحدث للحديث بين التصحيف والتحريف ، بان اولهما يكون في تغيير النقطة فقط ، واما ثانيهما فيكون في الشكل ، ويتوقف عند هذا الحد ويزيد عليه التهانوي ان التحريف يكون في الشكل والاعراب ايضا ، وان بعض العلماء يسمي كل ما يحدث له تغيير « محرفا » .

والحقيقة ان المطلع على نماذج التصحيف والتحريف في مصادرها يلاحظ ان الامثلة التي ترد من ذلك يتنوع التغير فيها دون ان ينص على ان هذا تصحيف وذلك تحريف وان منها ما يتعلق بتغيير النقطة او الشكل او الحروف واحيانا الاعراب .

ومن كل ذلك نستخلص الامور التالية دون تحديد حاسم :

اولا : ان كلا من التصحيف والتحريف يطلقان على رواية الخطأ الناتج عن قراءة الرسم العربي ويدلان على مطلق التغير والتبديل فيما يتعلق بذلك .

ثانيا : يكاد يكون من المتفق عليه ان التغير الذي يحدث في النقطة والشكل والحروف املايا يندرج تحت « التصحيف والتحريف » اما التغير في الشكل الامرابي فالظاهر انه خارج عن هذا الموضوع ، فنماذجه قليلة في كتب المتقدمين الخاصة بالتصحيف والتحريف وان اكثر الصفدي - وهو متأخر - من

- (1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36
- (2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13
- (3) منح المغيث في جواز اللحن في الحديث ص 5
- (4) كشف اصطلاحات الفنون ج 3 ص 836 .

للحروف العربية - يعود اليها المسؤولية الاولى من ظاهرة « التصحيف والتجريف » .

ومع ذلك فقد هاون على اشاعة هذه الظاهرة وخطرها « النساخ » الذين يسمون « بالوراثين » اولئك الذين تنحصر جهودهم في احترام الوراقاة لنسخ الكتب العلمية وبيعها للناس ، ولم يكن النساخ والوراقون غالباً على علم باللغة ، حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة يعتمد التمييز بينهما على نقطة او حركة او تغيير أحد الحروف ، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة ، وهذا نفسه معنى التصحيف والتجريف .

ويشارك في هذه المسؤولية ايضاً - على قلة - علماء اللغة انفسهم ، فان احدهم قد يفهم الكلمة فهماً خاماً يسوغه السياق له ، أو يسوغه هو لنفسه ، ثم يقرؤها ويرونها كما فهم وان لم يتفق ذلك الفهم مع أصلها وما قصده منها صاحبها ، ويترتب على ذلك ايضاً حدوث التصحيف ، ومما يؤيد ذلك عنابة مؤلفات « التصحيف والتجريف » بايراد تصحيقات العلماء في قسم خاص بهم ، بل ان بعض هذه المؤلفات يفرق بين المصريين والكوفيين في ذلك ، فيذكر أشهر العلماء من الفريقين مع ذكر نماذج من تصحيقات كل واحد منهم ، وأول اثر في هذا الموضوع - فيما أعلم - هو كتاب الصولي ، وعنوانه « ما صحف فيه الكوفيون » وقد أورد حمزة الاسفهانى في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » تسماً خاصاً للعلماء سماه « تصحيقات العلماء في شعر القدماء من 68 وما بعدها » وعدد من علماء المصريين خمسة وعشرين عالماً ، فأورد نماذج من تصحيقاتهم ، وفعل مثل ذلك أبو أحمد العسكري ، فجعل تسماً خاصاً له (ما وهم فيه علماء البصريين) وتسمى آخر من « ما وهم فيه علماء الكوفيين » .

لهذه الامور الثلاثة السابقة - الرسم العربي والنساخ وهم العلماء - يعود اليها مجتمعة مسئولية « التصحيف والتجريف » وان كان الرسم الكتابي اعظمها مسئولية في ذلك .

قال حمزة الاسفهانى : الذي ابدع صور حروف كتابة العرب لم يضعها على حكمة ، ولا احتياط لمن يجيء بعده وذلك انه وضع لخمسة احرف صورة واحدة ، وهي (الباء والتاء والشاء والياء والنون) وكان

هذه النماذج في كتابه « تحرير التجريف » لانه اعتمد فيه على كتب لحن العوام ، ونقل منها ما ضخم به كتابه .

ثالثاً : ان كلمة « التصحيف » في هذا النوع من الخطا ذات شهرة تفوق في ذلك كلمة « التجريف » وربما كان ذلك لقرب دلالتها على هذا النوع وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف .

رابعاً : الفرق بين « التصحيف والتجريف » و « اللحن » ان النوع الاول يتعلق بالخطا المترتب على قراءة الخط ، اما الثاني فمتشوه خطا النطق لعدم اجادة اللغة .

لكن ما هو السبب او الاسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في رواية اللغة ؟ !

والاجابة على ذلك بمباراة مختصرة هي « يرجع السبب الاساسي في ذلك الى الخط العربي وقابليته للتصحيف » ذلك ان حروفه متشابهة يميز بينها النقط التي توضع فوقها أو تحتها كما ان التمييز بين صيغ الكلمات يعتمد على الحركات التي اعتبرت تابعة للحروف ، ولم تعتبر في الرسم العربي حروفا مستقلة ، بل رسمت اولاً نقطاً فوق الحروف وتحتها وبين يديها ولما حدث الإعجام - وهو نقط كذلك - ومع تقدم الزمن ، أحدث الخليل بن أحمد رسمها أبعاضاً للحروف ، كما هي الصورة المستعملة حتى اليوم .

فالخط العربي في البداية لم يكن منقوطة ولا مشكولا ، كما حدث ذلك في المصاحف الخمسة التي كتبها عثمان للأمصار ، واستمر الناس يقرؤون فيها - على هذه الصفة - ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وفي عهد عبد الملك بن مروان - حين كثر الخطا والتغيير - وضع نصر بن عاصم - فيما يقال - النقط على الحروف للدلالة على ما سمي فيما بعد « بالشكل » لم كان الإعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة كالجيم والحاء مثلاً ، وكانت نقط الشكل تباين في شكل المداد نقط الإعجام ، واستمر الامر كذلك على ما فيه من مشقة - الى ان أحدث الخليل - فيما يقال - الشكل الذي يرسم على هيئة أبعاض الحروف فأراح الناس بذلك من مشقة الكتابة بنوعين من النقط .

فطريقة الرسم العربي في تشبيه حروفه وتمييزها بالنقط وضبط نطقها بحركات - لم يكن لها رسم خاص بها مطلقاً ، ثم رسمت منفصلة وتابعة

وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مبادئة
للاخرى حتى يؤمن عليه التبديل (1) .

✽ وقال الجاحظ من تحريف النساخ : لربما
اراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحا او كلمة ساقطة
فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف
المعاني يسر عليه من اتمام ذلك ذلك النقص ، حتى
يرده الى موضعه من اتصال الكلام ثم يصير هذا
الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فينسخ فيه الوراق
الثاني سيرة الوراق الاول ، ولا يزال الكتاب تتناوله
الايدي الجانية والامراض المفسدة حتى يصير غاطا
صرفا وكذبا مصمتا (2) .

✽ وقال ابو احمد العسكري : فالاحتراس من
التصحيف لا يدرك الا بعام غزير ورواية كثيرة وفهم
كبير وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح أن يأتي بعدها
مما يشاكلها ، وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها ،
ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتميز هذا مستصعب
عسير (3) .

فهذه النصوص الثلاثة متجمعة تحتوي على
العوامل التي يحدث بها التصحيف والخطا في رواية
اللغة بناء على ذلك ، واطرها ما ذكره الاصمغاني من
« اتخاذ الصورة الواحدة في الكتابة للدلالة على
الحروف المتعددة » وهذا - في فهمي - نموذج للشابه
بين الحروف في الصورة .

يترتب عليه التغير والتبديل الذي هو معنى
التصحيف والتحريف بصورة عامة تشمل هذا النموذج
وغيره من مظاهر التغير في الكتابة .

والجاحظ يصور بمرارة واسف ما يحدث
لنصوص والمؤلفات من جناية وفساد بسبب تداولها
بين النساخ - ومن ذلك التحريف طبعا - وما يعانيه
المؤلف - ومثله المحقق - من مشقة اذا اراد اصلاح
ما فسد او اكمل ما نقص .

و ضمانات الاحتراس من التصحيف تلخص
- من النص الاخير - في كثرة الرواية وسعة الفهم
واليقظة لسياق الكلام اوله وآخره ، وكل ذلك - كما

(1) : التشبيه على حدوث التصحيف من 36 .

(2) : انظر : العيون ج 1 ص 79 .

(3) : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف من 2 .

قال العسكري - مستصعب عسر حتى على العلماء ،
ولا غربة اذن في حدوث التصحيف منهم .

اما الفكرة الثالثة والاخيرة في هذه الفقرة فهي
بيان الصلة بين خطأ التصحيف والتحريف - الذي
يرجع في نشاته اساسا الى الرسم الكتابي - والبحث
في اللغة .

ان الذي يرد على الدهن لاول وهلة ان هذا النوع
من الخطا يتعلق بالرسم الاملائي وقصور الكتابة
العربية ، ويشفي بحثه في هذا النطاق ، ولا شأن لذلك
بدراسة اللغة التي تتجه أصلا الى النطق لا الكتابة ،
ويشعر على ذلك ان الخطا الذي يوجه باحث اللغة اليه
اهتمامه هو خطأ اللغة حين تنطق ، اما الخطا الذي
ينود للكتابة ، فيتكفل به ما سماه ابن قتيبة في كتابه
« ادب الكاتب » تقويم اليد .

ذلك امرأض وارد ، وفيه كثير من الحق ، فان
قضية التصحيف والتحريف تعود الى الرسم العربي
قبل أي شيء آخر ، ولو كان الامر مقتصر على ذلك
ما كان لها مكان في البحث عن الصواب والخطا في
اللغة ، لكن خطأ الكتابة لم يقتصر عليها ، بل تعدى
ذلك الى اللغة المنطوقة ، وبدا ذلك في مظهرين :

الاول : ان رواية اللغة مشافهة كان لها صلة
قوية بالكتابة .

الثاني : ان قراءة الكتابة - وهي نطق - حملت
اخطاء التصحيف والتحريف في معاني الكلمات وبنياتها،
بل ومخالفة قواعد النحو أحيانا .

ان رواية اللغة بطريقة علمية منظمة بدأت نشاطها
في القرن الثاني الهجري ، وأول الرواة العلماء - فيما
هو مشهور - أبو عمرو بن العلاء (ت 154) وخماد
الرواية (ت 155) ، وقد عاصروهم وجاء بعدهم رواة
اللغة الذين يعود الفضل الى جهودهم الرائدة في جمع
التراث اللغوي القديم كله ، ومن المعروف ان هؤلاء
العلماء الرواة لم يقتصروا في رواية اللغة على ما
عاصروهم فقط ، بل رووا الكثير من المصنوع الذي
سبقهم في الجاهلية والإسلام مما لم يعاصروه ، ولم
يسموا قائله ، وقد وصلهم ذلك من طرق متنوعة كان

اهمها - كما قرر ذلك الباحثون في العصر الحديث (1) - ما كان مدونا بالرسم الكتابي وما دأبت الكتابة لنصوص اللغة كانت مصدرا للرواية الشفهية التي تظاهر بها العلماء ، فقد انعكس خطأ التصحيف والتحريف بداهة على تلك الرواية الشفهية نطقا وقد أورد حمزة ابن الحسن الاصبغاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » عبارة منطقية عن أرسطو تقول « كل كتابة تشابه صور حروفها ، فهي على شرف تولد السهو والغلط والخطأ فيها ، لأن ما في الخط دليل على ما في القول ، وما في القول دليل على ما في الفكر وما في الفكر دليل على ما في ذوات الأشياء » (2) ويصح فهم معنى هذه العبارة بطريقة أخرى بأن نقول : أن ما في ذوات الأشياء ينعكس على الفكر ، وما في الفكر يعبر عنه القول والخط يثبت التعبير بالقول ويحافظ عليه ، ويمكن الرجوع إليه حين ارادة النطق به مرة ثانية ، فإذا احتمل الخط الغلط والخطا والوهم ، ظهر ذلك في النطق .

ويؤيد هذا الفهم النظري السابق ما حدث فعلا في كتب التصحيف والتحريف ، اذ ان وصفها لتحريف العلماء وتصحيقاتهم فيما أوردته من مواقف وأمثلة جاء صريح الدلالة على أن ذلك قد حدث نطقا لا كتابة ، وسماها لا رسما .

ومما ساقه حمزة الاصبغاني من العلماء المصحفين نصا قوله :

✻ أبو حبيدة : روى بيت امرئ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوالا معشرا

على حراس لو يسرون مقتلى

أي : أظهروا ، والصواب في رواية الاصمعي

(لو يسرون مقتلى) ومعناها : يظهرون .

✻ أبو زيد : حكى ابن دريد عن أبي حاتم قال :

انشدت الاصمعي

(جأيا ترى بلبه مسجعا)

فقال : صحفت ، وإنما هو (ترى قليلة مسجعا) ثم قال : من انشدك ؟ قلت : أعلم الناس لتغافل عني - وإنما عني أبو حاتم أبا زيد .

✻ اللحياني : أملى اللحياني (منقل استمان بدقنه) فقام إليه ابن السكيت - وهو حدث - فقال يا أبا الحسن ، إنما تقول العرب (منقل استمان بدقته) لأن البعير إذا رام النهوض استمان بجنبه ، فقطع الإملاء . (3)

فالرواية والانشاد والإملاء كلها من صفات المشافهة لا من صفات الكتابة ، مما يدل على ما نحن بصدده من أن التصحيف والتحريف وإن كان منشأهما الرسم والكتابة ، فقد حمل خطأهما نطق اللغة وروايتها

ولقد سبق أن مظاهر التصحيف والتحريف تكون في تبادل الحروف المتميزة بالنقط ، أو الشكل الذي يحدد نطق هذه الحروف ، ويفرق بين الصيغ ، أو وضع حرف مكان آخر وإحلاله محله مما يفسر نطق الكلمة ، وينتج من ذلك أحيانا مخالفة بعض الظواهر النحوية وإن كان ذلك قليلا .

والذي يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف حدوث كلمات جديدة ذات معنى مخالف لما أرادته منتج النص أصلا ، وقد تكون الكلمات الجديدة من التصحيف لا معنى لها على الإطلاق ، وإنما هي هراء لغوي لا يفيد شيئا .

أما تغيير شكل الحروف فيترتب عليه في النطق أمثلة جديدة تتدرج تحت صيغ صرفية مخالفة لما كانت عليه قبل ، وقد تخرج عن صيغ الصرف ومقتضيات اللغة أصلا ، فيحكم عليها بالخطأ ، والأول من هذين التومين انحراف في المعنى ، والثاني انحراف لغوي في بنية الكلمات .

وتغيير الحروف غير المميزة بالنقط يترتب عليه أيضا كلمات جديدة ذات معنى مغاير لما قصده منها صاحبها الأصلي ، أو كلمات مجرفة البنية يحكم عليها أيضا بالخطأ .

(1) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، فقد تفصل البحث كله بإتبات طرق نقل اللغة إلى العلماء ومنها الكتابة . وساق لذلك أدلة مقنعة .

(2) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 .

(3) انظر : السابق ص 69 و 77 و 93 على التوالي .

وأما ما يترتب على التصحيف والتحريف من خطأ النحو ، فيبدو إذا حدث التغيير في شكل آخر الكلمة أو استخدام أداة في تركيب لغوي لا يتطلبها المعنى النحوي له ، وهذا الصنف وإن كان قليلا إلا أنه يمثل جانبا يستحق الدراسة والاهتمام .

واليك نماذج قليلة تمثل الاصناف السابقة واحتمالاتها :

أولا : التغيير في الحروف المميزة بالنطق :

* من أبي عمرو الشيباني قال : كنا بالرقعة فأنشد الأصمعي :

عننا باطلا وظلما كما تمنز من حجرة الربيض الطلاب
فقلت له : إنما هي (تمتر) من العتيرة . والعتز :
الذبح ، فقال الأصمعي (تمنز) أي : تظمن بالعسرة ،
وهي الحربة ، وجمل يصيح ويشغب ، فقلت : تكلم
كلام النمل وأصب ، والله لو نفخت في شبور يهودي ،
وصحت إلى التناد ، ما نفعتك شيء ، ولا كانت إلا
(تعتر) (1) .

* ومن الجاحظ قال : مررت بمعلم وهو يلقي
صبيا :

يا أبا الفياش جنى
أخرج الفتيان غشا

لبش في الأرض أياس
شربوا أملج مشا

فقلت : بالمبرانية هذا ؟ قال : لا ، هو بالعربية ،
فلما تأملته إذا هو مكتوب :

يا أبا العباس جنى
أخرج الفتيان عشا

ليس في الأرض أناس
شربوا أملج مشا

فقلت : أيها المعلم ، أنك ضائع بهذا البلد ، قال :
نعم ، قلود ومرزايق (2) .

ففي النموذج الأول ترتب على تغيير نقط الحروف وجود كلمتين هما (تعتر) و (تمنز) تنازع حولهما الشيباني والأصمعي ، وكلاهما صحيح لغة ومعنى .

أما النموذج الثاني فإن تغيير نقط حروف الكلمات فيه أنتج كلمات لا معنى لها حتى ظنها الجاحظ كلاما « بالمبرانية » وقدم للمعلم بسببها النصح الآخر قائلا « أيها المعلم ، أنك ضائع بهذا البلد .

ثانيا : التغيير في شكل الحروف :

* قال خلف الأحمر : أنشد المفضل للمخبل :

وإذا لم خيالها طرقت
ميني ، فمأ شئونها سجم

فقلت : إنما هو (طرقت) فلج ساعة ، ثم رجع
منه (3) .

* قال أبو أحمد العسكري : ومما يقع فيه
التصحيف حتى شك في ذلك بعض العلماء ، فجعل
له تفسيرا آخر - روى أن النبي (ص) أتاه الملكان ،
فشقا بطنه ، ثم قال أحدهما (ابني بالسكينة) فرواه
بعضهم (ابني بالسكينة) بكسر السين على أنها مؤنث
(سكين) وإنما هي (السكينة) بفتح السين والكفاف
غير المشددة .

قال : وقد فسره ابن الأنباري على أنه لغة في
(السكين) وأكثر أهل اللغة لا يعرفون إدخال الهاء فيها ،
وهذا ذهاب عن الصواب (4) .

ففي النموذج الأول فيرت (طرقت) إلى (طرقت)
فوجدت كلمة جديدة ، وكل منهما تختلف عن الأولى
في الصيغة الصرفية ، علاوة على ما غير من النقط
فيهما ، وكل منهما صحيحة من حيث الصيغة والمعنى .

أما الثاني فإن التصحيف بتغيير الحركات أنتج
كلمة ليست من اللغة ، وحكم عليها العسكري بأنها
« ذهاب عن الصواب » .

(1) المزهج ج 2 ص 359 - شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 93 مع اختلاف سير .

(2) محاضرات الأدباء ج 1 ص 63 .

(3) التنبيه على حدوث التصحيف ص 78 .

(4) تصحيف الحديث ص 126 .

ثالثا : التغيير في الحروف غير المنقوطة :

❖ روى الاصمعي بيت « أوس بن حجر »

اجون تدارك ناقتي بقرائها

واكبر ظني ان جونا سيفعل

قال ابن الاثيري : صحف الدعى ، انما هو (تدارك ناقتي بقرائها) اي : ما دمت اطمع فيها (1).

❖ ورد في كتاب « دليل لغة العرب » الكلمات الالية والتعليق عليها .

العاس - الماذ تحريف

ببخان - بشفخان تحريف (2)

وفي النموذج الاول واضح الفرق بين (قرى لها) و (قراها) بسبب تغيير الباء باللام، واما الامثلة الاخيرة فالصورة الحادثة بالتحريف صورة خاطئة لغويا ، فالكلمات حرفتا نتيجة تغيير السين ظاء في الاولى ، وتغيير الباء هينا في الثانية .

رابعا : ظواهر النحو في التصحيف :

❖ عن ابي عمرو قال : انشدت الفرزدق ويده في يدي لابن أحمر :

فاما زال سرح من معد

واجدر بالحوادث ان تكونا

فلا تصلى بمطروق اذا مسا

سرى بالقوم اصبح مستكينا

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 74 .

(2) دليل لغة العرب ص 32 .

(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 77 .

فقال لي : اوشدك ام ادمك ؟ قلت : ترشدني ، قال : اذا كان ممن يسرى بالحي ، فليس بمطروق وانما هو (اذا سرى في الحي) فعلمت اني اخطأت ذلك ، ونا الامر كما قال .

وهذا من التحريف لا من التصحيف (3) .

لنم الواضح ان الخطا في الجملة جاء من استخدام حرف الجر (الباء) في الموضع الذي يقتضي فيه المقام حرف الجر (في) وهو خطأ يعود الى المعاني التي ترد في النحو لاستخدام حروف الجر في مواطنها المناسبة ، وقد خلق المسكري على ذلك بانه من التحريف لا من التصحيف ، ويبدو ان هذا الفهم لما يشمله التحريف من بعض ظواهر النحو قد اتسع مداه فيما بعد حتى سوغ ذلك للصفا في القرن الثامن الهجري ان يورد في كتابه « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » ما يشمل مظاهر اللحن في النطق ، ولا يقتصر في ذلك على النطق المترتب على الخطا في الكتابة .

واخيرا :

فان الذي سوغ لنا في البحث من الصواب والخطا في اللغة ان نعرض لقضية « التصحيف والتحريف » - مع انهما يرجعان اصلا لرسم الكلمات وكتابتها - ما تبين مما سبق عرضه من الصلة بين الكتابة والرواية الشفهية من ناحية ، وما ترتب على الامر من الخطا اللغوي المنطوق في معاني الكلمات وبنيها الصرفية ، وبعض الظواهر النحوية .